المساجد للدعوة لا للدعاية

أحمد الحبيشي

من الصعوبة بمكان فصل نزعات العنف عن التعبئة الخاطئة التي روّجت لأفكار متعصبة توهم من يعتنقها بالنجاة من النار والفوز بالبنات الحور في الجنة، وتصف من يخالفها بالضلال والكفر، ثم تربط الانضمام إلى الفرقة الناجية بالسمع والطاعة ونبذ المفارق للجماعة ومجاهدة أهل الرأي والبدع والشرك والضلال!!

لا ريب في أن نزوع المتعصب لهذه الأفكار إلى العنف شيء طبيعي ما دامت هذه الأفكار تقوم على يقين مطلق باحتكار الحقيقة ، وتوهم من يؤمنون بها بالحصول على تفويض الهي مطلق أيضاً بحراسة الدين وحماية حقوق الله ومحاربة المخالفين والوساطة بين الله وعباده في الارض !!

وحين يندفع المتعصب إلى ناصية العنف لمقاومة أعداء الحقيقة وحراسة الدين في الدنيا ، فهو بالضرورة يتقرب إلى الأفكار التي يتعصب لها، ويجسد من خلالها طاعته المطلقة للجماعة ، وشوقه للجنة التي وعده بها أشباه الأكليروس ، سواء تمّ ذلك من خلال الاغتيالات أو محاولات الاغتيال، أو أعمال العنف التي تستهدف ترويع المخالفين وبث الرعب في قلوبهم !!

ولئن أراد المتطرفون الذين تورطوا في ارتكاب بعض الجرائم الإرهابية في العديد من البلدان العربية والإسلامية توصيل رسائل إلى مخالفيهم مكتوبةً بدماء الضحايا الذين حصدتهم تلك الجرائم الإرهابية ، فقد صاغوا قبل ذلك بأقلامهم وأصواتهم عبر الكتب والمطبوعات والأشرطة الصوتية والمنابر، أفكاراً مهدت لجرائمهم الدموية انطلاقاً من ذات العقلية التي أنتجت ثقافة العنف والتطرف والتعصب، وهي العقلية النقلية الاتباعية التي تعادي العقل ، وتنفر من الجديد وترمي بالكفر أي إبداع خارج عن المألوف ، وتستريب بالمغايرة والمخالفة ، وترفض القبول بالآخر والتعايش معه.

تنزع هذه العقلية التقليدية الاتباعية إلى الإقامة الدائمة في الماضي والقياس عليه ، بحيث تبدو حركة التاريخ حلزونية لا تتقدم إلى الأمام ، ولذلك تنطوي هذه العقلية على ثقافة متعصبة للماضي، منغلقة داخل أطر تأويل متحجرة للنصوص الدينية ، لا تنفك أن تتحول إلى تعصب سياسي فئوي أعمى، بعد أن يتم تحويل ذلك التأويل المنغلق إلى ممارسة سياسية دنيوية تدعي حراسة الدين بوسائل الدنيا.

يتأسس هذا النزوع على ثقافة قمعية يغذيها خطاب تحريضي يستثير في المتلقي منطقة اللاوعي ، ويستولد منها أفعالاً عنيفة وعصبية ضد المغايرين والمخالفين .

لا يحتاج المرء إلى جهد كبير كي يكتشف خطورة التغذية العائدة FEED PACK لدى المتلقي المتعصب، حين يصرخ في وجهه داعية تصفوي من منبر المسجد أو عبر شرائط التسجيل بلهجة مشحونة بمفاعيل الإثارة والتهييج، على نحو ما نجده في بعض الأشرطة التي تحمل عناوين مثيرة مثل : "منْ يبايعنا على الموت"، "وقاتلوهم حتى لا يبقى شبر على وجه الأرض لا يحكمه الإسلام، ولا يبقى إنسان فوق الأرض لا يؤمن بالإسلام، فالمعركة قائمة على هذا الأساس والصراع مستمر لهذا الغرض".. الخ.

بيد أنّ خطورة هذه الثقافة لا تكمن في إثارة المشاعر الدينية وتوظيفها لأغراض سياسية وحزبية فقط بل تتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد.. فالوسائل التي يتم استخدامها في الترويج للأفكار المتطرفة ونشر ثقافة العنف والتعصب هي الأخرى أكثر خطورة من استخدام الدين لأغراض سياسية وحزبية ودنيوية ضيقة !!!

الثابت أنّ ثمة متطرفين وحزبيين متعصبين يستخدمون منابر المساجد التي يؤمها مئات وآلاف المصلين لعبادة الله والتقرب إليه ، ثم يحاولون استغلالها للتأثير على الوجدان الجمعي للمسلمين البسطاء من خلال مؤثرات لغوية وتقنيات خطابية تستخدم فيها الإشارات والحركات المثيرة والأصوات العالية وأحياناً التظاهر بالبكاء.. بمعنى أنّهم يستخدمون المسجد للدعاية لا للدعوة.. والدعاية هنا عملية إعلامية بامتياز.

يبدو البُعد الإعلامي واضحاً في آليات الخطاب الناظم لثقافة العنف والتعصب.. فإذ يتحول المسجد من دار عبادة إلى واسطة إعلامية ، يصبح بالضرورة وسيلة دعائية متاحةً لنشر هذه الثقافة بصورة مبرمجة إلى جانب وسائط أخرى مثل الرسائل البريدية والنشرات وملصقات الدعاية الانتخابية وشرائط التسجيل الصوتية وشرائط الفيديو وشرائط الأناشيد الدينية والسياسية والانتخابية التحريضية التي تصرخ في وجوه المارة عبر محلات التسجيل وفوق سيارات التاكسي وسيارات النقل الجماعي بمختلف أحجامها، وبواسطة مكبرات الصوت في المدارس والحفلات.. ومن ما شك في أنّ مرشدي الجماعات المتطرفة يمتلكون رصيداً لا ينكر في إضفاء طابع تخييلي وتهييجي في آن واحد على الخطاب الدعائي الذي ينتج ثقافة العنف، وذلك بهدف الحصول على استجابة حماسية من اللاوعي تغيب عنها الرؤية، ويسودها الانفعال الذي يتحول إلى عنف يستولد القمع من رحم ثقافة التطرف!

في كتابه الموسوم بعنوان " ضد التعصب " وصف الدكتور جابر عصفور الصلة بين خطاب العنف وممارسات العنف بأنّها الصلة بين السبب والنتيجة في عَلاقة فاعلي ثقافة العنف بالمنفعلين بها .. "فالخطاب الذي يجسد عنف ثقافة تختزل كل ما في الوجود اللانهائي للكون في تأويل ضيق ووحدي للدين لا ترى غيره ولا تقبل سواه من غيرها، بل ترفضه وتمارس عليه قمعها، هو الخطاب الذي يتحول إلى دوافع انفعالية تنتهي إلى أفعال عنف ناتجة عن هذه الدوافع مخرجة إرهاباً قاتلاً".

ينطبق هذا التحليل على قاتل جار الله عمر وقاتل الأطباء في جبلة ومفجري المدمرة الأمريكية "كول" والناقلة الفرنسية "ليمبرج" وخاطفي السياح في أبين، ومفجري أنابيب العنف في مأرب، وغيرهم من مرتكبي الأعمال الإرهابية التي اكتوت البلاد بنارها !!

وبوسعنا القول إنّ استغلال بيوت الله وتحويلها إلى منابر حزبية لعرض وجهات النظر السياسية وبث الدعاية الانتخابية وتكفير الدولة والجماعات والأفراد، سلوك خطير يتنافى مع الدين والدستور والمصالح الوطنية.

إنّ مهمة حماية المساجد من خطر الذين يحاولون توظيفها من أجل تحقيق اهداف حزبية او فئوية او سياسية ، وصولاً الى تمزيق وحدة المجتمع وتكفير وتخوين القوى السياسية والأفراد ، تطرح على بساط البحث والنقاش ضرورة إغلاق كافة المنافذ التي يتسلل منها المتطرفون والمتاجرون بالدين إلى منابر بيوت الله ، وتنزيه رسالة المسجد وتخليصه من العابثين الذين يجعلون من دور العبادة وسائل دعائية لمصالح بعض الناس ، بدلا من ان تكون اماكن للدعوة الى الله والتقرب منه ، وهو الأمر الذي يستلزم إعلاء وظيفة خطبة الجمعة التي يُعد الاستماع إليها بصمت وخشوع واجباً دينياً لا تقوم الصلاة بدونه.. والله من وراء القصد.

نقلاً عن/ صحيفة «٢٦سبتمبر»

لهذه الأسباب أرفض وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم في مصر

أسامة فوزي *

إذا وصل الاخوان الى الحكم في مصر عليكم ان تتوقعوا ما يلي:

١ – ستصدر فتاوى عن الازهر بتكفير جمال عبدالناصر باثر رجعي ... وقد يتم نبش قبره وتنفيذ حكم الاعدام بجمجمته.

٢ - سيصدر مرسوم اخواني بالغاء النشيد الوطني ومنع تحية العلم .

٣– سترفع مصر يدها تماماً عن الموضوع الفلسطيني وسيصبح اهتمام الشيخ الرئيس عاكف منصباً على الاخوة في افغانستان واخوة الدين في الفلبين والمسلمين في طشقند وقد يجد المصريون انفسهم يجاهدون في جزر الماوماو لتحريرها من الاحتلال الصليبي الغادر.

٤– سيتحول المجتمع المصري الى مجتمع (رجالة) بدءاً من الفصل بين النساء والرجال في المدارس والجامعات والمصانع والوزارات والشركات والمؤسسات العامة والخاصة وانتهاء بفصلهم حتى في محلات السوبر ماركت

٥– سيتوقف الانتاج السينمائي والتلفزيوني المصري ، وسيتوقف معه البث التلفزيوني واستقبال القنوات الفضائية ، وسيتم اغلاق محلات التصوير والتسجيلات الموسيقية .

٦– ستوقع مصر اتفاقات اخوة وتعاون مع الجماعات الجهادية في افغانستان وباكستان وكشمير والشيشان والفلبين والصين ، وستحتفظ بعلاقات متطورة ومتميزة فقط مع الدول الاسلامية التي تعيش على المعونات الامريكية والخارجية.

٧– ستقاطع مصر جميع الدول العلمانية الكافرة مثل امريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا وكندا ... وسيتم منع استيراد معجون الاسنان كولجيت طالما ان لدينا وفرة في المسواك!

٨– ستصدر فتوى عن الشيخ عاكف بتحريم ركوب السيارات والقطارات وستنتشر الحمير الصعيدية والبغال الاسيوطية وعربات الكارو في القاهرة لحل مشكلة المواصلات كما حلتها حركة طالبان في كابول.

٩– سيتم جمع الجزية من خمسة ملايين مواطن مصري قبطي لانهم من "اهل الذمة"!

١٠– سيتم قطع ارزاق الحلاقين واصدار قوانين بتطويل اللحية وقد يسن مجلس الشعب الاخواني مرسوماً باجبار المسيحيين على حلقها حتى يتم تمييزهم عن المسلمين وسيتم طمر الشوارع المصرية بالشرطة الدينية – المطاوعة– لجلد الرجال الذين لا يصلون على مؤخراتهم.

١١– سينط احمد الفيشاوي وزملاؤه من الوعاظ الجدد على بنات الناس – بالحرام– لتحبيلهن طالما ان الشرع ينص على ان الولد للفراش وابن الزاني لا ينسب لابيه وانما ينسب لجاره!

١٢– سيتم الغاء جميع الاجنحة من معرض القاهرة الدولي للكتاب والاكتفاء بالجناح الاسلامي الذي سيتضمن مطبوعات الاخوان ومواليهم ... بدءاً بسحر الكهان والعلاج ببول الابل ، وعذاب القبر وآداب مسح اللحية وايلاج راس الاحليل في قبل او دبر ... وانتهاء باداب الجماع

١٣– سيتم منح اسامة بن لادن والزرقاوي والحمراوي وابو الدرداء حق اللجوء السياسي في مصر باعتبارهم من المشاركين في غزوتي واشنطن ونيويورك ... وغزوة الخندق في افغانستان.

١٤ ستمنع جميع الاحتفالات بالمناسبات الوطنية لانها بدعة ... وكل بدعة ضلالة ... وكل ضلالة في النار.

١٥– سيتم دفن جميع (الموميات) الموجودة في المتحف المصري لان اكرام الميت دفنه كما سيتم هدم الاهرامات لانها شواهد من زمن الوثنية الكافرة وسيتم تحويل قبر سيد قطب الى مزار ديني للتبرك بحجارته .

١٦– ستحل ازمة العنوسة في مصر لان باب الزواج من اربع سيفتح على اوسع ابوابه ... وسيسمح ايضاً بشراء الجواري والتسري بهن ومواقعتهن عملاً بصحيح الدين !!

١٧ سيتم تغيير اسم "شرم الشيخ" الى عمّة الشيخ او لحية الشيخ او عباءة الشيخ او نسوان الشيخ وسيتم الفصل بين السواح الذكور والاناث في خليج نعمة وسيقتصر دخول خليج نعمة على النساء اما الرجال فسيتم بناء خليج جديد لهم باسم خليج (نعم)!!

١٨– سيتم تنفيذ الفتوى التي كان احد شيوخ مصر قد اطلقها والقاضية بهدم برج القاهرة لانه بما حوله من مسطحات خضراء وبطوله الشديد يدعو الى العوار ويذكر النساء بالعضو التناسلي للرجل بما في ذلك من دعوة الى الفسوق!! وهي الفتوى التي صدرت فعلاً عن شيخ يترأس حزبا مصريا اسلاميا ونشرتها الصحف المصرية .

١٩– سيتم منع اغاني ام كلثوم وعبد الحليم والاطرش وفايزة احمد وسائر المطربين الاحياء منهم والاموات والاكتفاء – في برنامج ما يطلبه المستمعون– ببث اناشيد المغني الانجليزي السابق كات ستيفن الذي سمى نفسه يوسف اسلام وحلقات الملاكمة للملاكم الامريكي كاسيوس كلاي الذي سمى نفسه بالحاج احمد .

٢٠– سيصدر فضيلة الشيخ المغني شعبان عبدالرحيم حفظه الله اغنية جديدة بهذه المناسبة مطلعها..... باحب مهدي عاكف ... وباصلي وراه ركعتين .. ايييييييييييه

٢١– سيتم مصادرة جميع ممتلكات واموال الاغنياء ورجال الاعمال والكفار وضمها الى بيت مال المسلمين تمهيداً لصرفها بمعرفة الشيخ مهدي عاكف ... وعصابته.

٢٢– سيتم اغلاق جميع المقاهي والمطاعم في خان الخليلي وقصر التجارة فيه على انتاج المصانع المصرية من المسابح والمساوك وجوزة الطيب والبخور والكالونيا الرجالي الحلال وخلطة العريس.

٢٣– ستسحب جائزة نوبل من الدكتور احمد زويل وتمنح لزغلول النجار الذي سيعين وزيرا للبحث العلمي والذي سيكتشف لاحقاً ان اسم مهدي عاكف زعيم الاخوان قد ورد ذكره في القرآن ٣٦ مرة وان الصورة التي تظهر على القمر – وهو بدر– ليست صورة صدام حسين – كما زعم احد مشائخ الاخوان الاردنيين– وانما هي صورة مهدي عاكف .

لهذه الاسباب انا أعارض وصول الاخوان المسلمين الى الحكم في مصر.

* مخرج سينمائي مصري

١١ سبتمبر في منظور فلاسفة الغرب

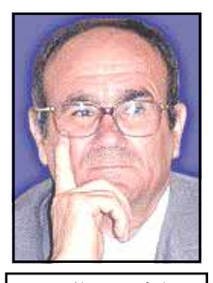

هاشم صالح *

ما رأي فلاسفة الغرب بـ «١١» سبتمبر؟ غني عن القول اني لن استطيع التحدث عن آرائهم كلهم وانما سأختار من بينهم شخصاً يعتبرونه من كبار عقلائهم: ألا وهو المفكر الألماني يورغين هابرماس. فهناك إجماع عليه بأنه أكبر عقل فلسفي في الغرب الأوروبي والأميركي على حد سواء. فما رأي عالم كبير كهذا بحدث من نوعية «١١» سبتمبر؟ من المعلوم ان الكثيرين يقارنون «١١» سبتمبر بحادثة بيرل هاربور التي حصلت عام «١٩٤١» وأدت الى تدمير الاسطول الأميركي عن بكرة أبيه تقريباً وقد قام بالعملية، وبشكل مباغت جداً «تماماً كما حصل في١١ سبتمبر» الطيران الياباني. فقد أغار عدة مرات على الأسطول الأميركي النائم والقواعد العسكرية الأخرى صبيحة «٧» ديسمبر من ذلك العام تماماً كما أغارت الطائرات الانتحارية صبيحة «١١ سبتمبر» على البرجين التوأمين في نيويورك.

وقد دامت الغارات المباغتة ساعة واحدة وأدت الى قتل «٢٤٠٣» أشخاص ما بين ضابط وجندي ومدنيين ايضاً، وجرح ما لا يقل عن «١١٧٨» شخصاً آخر. هذا في حين ان ضربة «١١» سبتمبر أدت الى قتل ثلاثة آلاف شخص دفعة واحدة. وبالتالي فالتشابه واضح بين كلتا الحالتين على الرغم من الاختلافات البسيطة. وقد جنّ جنون الرئيس روزفيلت عندما سمع بالنبأ تماماً كما حصل لبوش. وقرر على الفور دخول الحرب العالمية الثانية الى جانب الحلفاء ضد دول المحور: أي المانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان التي لم تكن تقل فاشية عنهما. وعندما نزلت أميركا بكل ثقلها في الميدان أصبح واضحاً ان هزيمة هتلر لم تعد إلا مسألة وقت..

على الرغم من كل هذا التشابه بين الحدثين الصاعقين الا ان هابرماس يفضل ان يقارن «١١» سبتمبر بتاريخ اعلان الحرب العالمية الأولى في شهر اغسطس من عام «١٩١٤» . فهل يعني بذلك اننا دخلنا في مرحلة حرب طويلة الأمد بين الحضارة الغربية والأصولية الاسلامية المتطرفة؟ ربما. وعلى أي حال فإن هذا ما يعتقده مفكر وكاتب ايطالي شهير هو امبيرتو إيكو في كتاب يصدر بعد أسابيع قليلة. ويرى هذا المثقف الايطالي المعروف في العالم العربي من خلال ترجمة بعض رواياته ان العامل الثقافي هو الذي سيحسم المعركة وليس العامل العسكري أو الحربي أو حتى التكنولوجي. ولذا فينبغي على الغرب ان يستخدم سلاحاً آخر مع العرب والمسلمين غير السلاح الذي يستخدمه بوش: اقصد سلاح الفكر والاشعاع الحضاري والنزعة الانسانية العميقة فهو أكثر فعالية من الجيوش الجرارة.

لكن لنعد إلى هابرماس الذي يمتلك عقلاً فلسفياً وسوسيولوجياً واسعاً لا يمتلكه امبيرتو ايكو. يعتقد هذا المفكر ان «١١» سبتمبر هو أول حدث تاريخي عالمي بالمعنى الحرفي للكلمة. ويقصد بذلك ان شاشات تلفزيون العالم أجمع نقلته لمليارات البشر في نفس اللحظة التي كان يجري فيها. ولكنه يرفض ان يطلق عليه حكماً من نوع: هل هو في حجم وأهمية الاحداث الكبرى الاخرى في التاريخ كاندلاع الاصلاح الديني في أوروبا مثلاً على يد مارتن لوثر، او كاندلاع الثورة الفرنسية.. الخ؟. لماذا؟ لأننا لا نزال قريبين جداً من الحدث وبالتالي فلا نمتلك المسافة اللازمة لكي نقدر مدى أهميته وحجمه. لا ريب في انه ضخم وهام، ولكن هل يصل الى مستوى ضخامة الحدثين اللذين ذكرناهما؟ لا أحد يعرف. كل ما نعرفه هو انه ناتج عن عدة عوامل متشابكة ومتضافرة لا عن عامل واحد.

من أهم هذه العوامل عدم مرور العالم الاسلامي حتى الآن بالمرحلة التنويرية الفلسفية، على عكس ما حصل في أوروبا والغرب عموماً. وهذه المرحلة ضرورية لكي يتمايز اللاهوتي او الديني عن السياسي، ولكي نخرج من مرحلة الحكم الثيوقراطي «اي حكم رجال الدين» إلى مرحلة الحكم الديمقراطي. ثم يردف هابرماس قائلاً: لم يستطع العالم الاسلامي حتى الآن ان ينتقل من الموقف التقليدي في فهم الدين إلى الموقف الحديث. بمعنى انه لم يستطع، ولن يستطيع قبل وقت طويل، ان يتخلى عن احتكار الحقيقة الالهية المطلقة وتكفير كل الاديان الاخرى بما فيها المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية، الخ.. هذا بالاضافة الى تكفير الفلسفة العلمانية الحديثة التي اصبحت الآن «دين الغرب» وأوسع انتشاراً بكثير من جميع الاديان. والواقع ان عملية الانتقال هذه هي عملية عويصة، شاقة، مرهقة. وأكبر دليل على ذلك تجربة المسيحية في مذهبها الكاثوليكي البابوي الروماني. فهي ايضا كانت تدعي احتكار الحقيقة المقدسة المتعالية لنفسها وتكفر جميع الاديان والمذاهب الاخرى. ولكنها اضطرت بسبب ضغط الحداثة والنجاحات الهائلة التي حققها العلم الى اعادة النظر في موقفها والاعتراف بمشروعية التعددية الدينية والمذهبية داخل المجتمع، بل واعترفت حتى بوجود أناس غير متدينين على الاطلاق باعتبار ان الايمان لا يمكن ان يُفْرَض على الناس بالقوة وغصباً عنهم.

هذا التطور الهائل الذي حصل في الغرب والذي يتلخص بكلمة واحدة او كلمتين: الحرية الدينية، هو الذي تخشاه الحركات الاصولية الاسلامية أشد الخشية. ولذلك يزداد هيجانها كلما أحست بأنه ابتدأ يقترب من أبواب العالم العربي أو الاسلامي. لهذا السبب فان ١١ سبتمبر جاء كرد فعل عنيف ومذهل على هجمة الحداثة الغربية على المنطقة، بالطبع فهذا التفسير لا يعني التبرير لضربة ١١ سبتمبر الآثمة والمجرمة والتي يدينها هابرماس بكل ما أوتي من قوة. ولكنه يحاول ان يفهم ما حصل ولماذا حصل ما حصل.. وهذه هي مهمة الفلاسفة الكبار. فالاستئصال العنيف لنمط الحياة التقليدية ولكل الافكار العتيقة والاصولية المرافقة لها من قبل الحداثة والعولمة الاميركية أثار كل رد الفعل هذا الذي يشبه الزلزال.

يضاف إلى ذلك انه اذا كانت المجتمعات الاوروبية قد عاشت عملية الفصل بين اللاهوتي والسياسي بشكل تدريجي وعلى مدار ثلاثة قرون، فان العالم الاسلامي مدعو لفعل نفس الشيء على مدار ثلاثة عقود فقط! وهذا ما أدى إلى زعزعته في العمق فرد بكل العنف الممكن على ما رأى فيه عدواناً على هويته ونمط حياته، بل وحتى مقدساته. بهذا المعنى فإن ١١ سبتمبر سوف تكون له فوائد جمة لا حصر لها ولا عدد وأولاها:

استيقاظ المسلمين من غفوتهم الطويلة التي دامت ألف سنة تقريبا والانخراط في عملية غربلة شاملة لكل موروثهم العقائدي والفقهي القديم. اذا ما حصل ذلك فإن ١١ سبتمبر لن يكون قد ذهب سدى.

لكي نقيس حجم الهوة الساحقة والمرعبة التي تفصل بين العالم الاسلامي والغرب يكفي ان نذكر الحادثة التالية: في عام ١٧٩٣ اي في نهاية القرن الثامن عشر أصدر ملك بروسيا قراراً او فتوى لاهوتية بتهديد الفيلسوف ايمانويل كانط اذا ما استمر في مواصلة بحوثه العقلانية عن الدين المسيحي وفي عام ١٩٩٤، أي بعد مائتي سنة بالضبط صدرت فتوى بتكفير نجيب محفوظ بسبب روايته «أولاد حارتنا» وتم الاعتداء عليه جسدياً أمام منزله من قبل أصولي جاهل ومتطرف. وفي ذات الوقت صدرت فتاوى اخرى عديدة ضد الكتاب العرب او المسلمين من جهات مختلفة. وكان أخطرها وأشهرها فتوى الخميني ضد سلمان رشدي عام ١٩٨٩ والتي أمرت ليس بقتله فقط وانما قتل ناشريه ومترجميه ايضاً! ماذا يعني ذلك؟ الا يعني ان الصدام محتدم بين الغرب والعالم الاسلامي: اي بين عالم ما بعد الحداثة وعالم ما قبل الحداثة؟

* كاتب سوري

لماذا يتمرد الناس؟

تركي الحمد *

مما لا شك فيه أن للظواهر الاجتماعية أسبابا عديدة يصعب حصرها، ولذلك فإن الدارس لهذه الظواهر لا يستطيع الجزم في نتائجه مثل جزم الدارس للظواهر الطبيعية، وذلك لكثرة المتغيرات وصعوبة تحديد اثار تداخلها في وقت واحد. من هذه الظواهر ظاهرة عدم الاستقرار السياسي وأسبابها، حيث تختلف أسبابها من مكان لآخر، ومن مكان لآخر، ومن ثقافة معينة إلى ثقافة أخرى. ولكن، وإن كانت النتيجة السابقة صحيحة، إلا أن هنالك تعميمات معينة يمكن استخلاصها من تاريخ البشرية، يمكن أن تنطبق على اختلاف درجاتها على معظم أحداث هذه المعمورة، ومن ذلك ظاهرة عدم الاستقرار السياسي، أو لنقل الاضطرابات السياسية على اختلاف درجاتها، بدءاً من التمرد الجزئي، وحتى الثورات الكبرى.

فقد يكون سبب الاضطراب اقتصادياً، أو ثقافياً متعلقاً بمعنى مفاهيم معينة في هذا البلد أو ذاك، وقد يكون سبباً اجتماعياً متعلقاً ببنية المجتمع ذاته، وقد يكون كل ذلك أو لا يكون أي من ذلك، فالظاهرة الاجتماعية عموماً عصية على الفهم التام، ولا نستطيع في كثير من الأحوال إلا أن ندرس كل ظاهرة على حدة، من أجل الوصول إلى شيء من الفهم الشامل لما حدث وكيف حدث ولماذا حدث. ولكن الأهم من الأسباب العميقة للأضطراب السياسي هو تلك الأمور أو المتغيرات أو العوامل أو المستجدات التي «تعجل» العملية، أو تسارع في انفجارها، وتحدد حجمها، أي تمرد عابر أو هو ثورة شاملة. فالأسباب العميقة للاضطراب قد تكون موجودة في كل المجتمعات التاريخية والمعاصرة، فليس هناك مجتمعات كاملة أو مثالية منذ أن أُخرج آدم من الجنة وحتى يعود نسله إليها، ولكن هي المعجلات أو المسرعات تلك التي تحفر الأعماق، وتجعل من الأسباب الكامنة أسباباً فاعلة على السطح.

كتب كثيرة ناقشت «لماذا يتمرد الناس»، وفق عنوان كتاب تيد غور الكلاسيكي في هذا المجال، وهو الذي جعلناه عنواناً لهذه المقالة، وليس هنا مجال مناقشة تلك الكتب. ولكن في كتاب «الحركات الثورية المقارنة: بحث عن النظرية والعدالة»، يرى المؤلف أن هنالك عدة معجلات أو مسرعات تفاقم عدم الاستقرار السياسي، تُضاف إلى الأسباب العميقة لعدم الاستقرار، ذكر أهمها: الهزيمة العسكرية، الأزمة الاقتصادية، العنف الحكومي أو الرسمي، تمزق النخب، الإصلاح السياسي، والمحاكاة (توماس جرين. الحركات الثورية المقارنة: بحث عن النظرية والعدالة. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢)). وكلما ترافق أكثر من واحد من هذه المعجلات، كان الأثر أكبر، والعكس ليس بالضرورة صحيح. فالهزيمة العسكرية تؤدي إلى جرح عميق في الذات الوطنية من ناحية، وإلى تزعزع في الشرعية التي يرتكز إليها النظام السياسي الحاكم، وهذا هو الأهم من ناحية أخرى. فمن الملاحظ أن الكثير من الثورات وحركات التمرد على النظام القائم والانقلابات العسكرية وغير العسكرية، غالباً ما تعقب هزيمة عسكرية تجرح الكبرياء الوطنية وتشكك في شرعية النظام الذي قاد إلى الهزيمة. ثورتا ١٩٠٥، و١٩١٧ الروسيتان كانتا في أعقاب هزيمة عسكرية مخجلة بالنسبة للوطنية الروسية. والثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩، كانت في أعقاب حرب فاشلة بين فرنسا وبريطانيا عام ١٧٨٨، وكانت كومونة باريس الشهيرة مترافقة مع إخفاق العسكرية الفرنسية في حربها مع بروسيا عامي ١٨٧٠ و١٨٧١، وفي أعقاب هزيمة المحور في الحرب العالمية الأولى، انفجرت الثورات وحركات التمرد في ألمانيا والنمسا والمجر وتركيا. وكانت هزيمة ١٩٤٨ العربية، هي فاتحة عصر الانقلابات العسكرية العربية. وهزيمة عام ١٩٦٧، كانت هي التي سحبت بساط الشرعية في النهاية من تحت أقدام الحكم الناصري في مصر، وأعادت تشكيل الذهن الايديولوجي العربي ليعود ذهناً مُديناً في الغالب الأعم، والأمثلة كثيرة.

أما الأزمة الاقتصادية فأثرها في «تمرد الناس» حاسم وقاصم في ذات الوقت. الثورة الفرنسية الكبرى كانت مسبوقة مباشرة بموسم حصاد سيئ، وبطالة متفاقمة، وأسعار عالية، وخاصة أسعار الخبز، وأجور منخفضة، وانفاق باذخ من ناحية أخرى في القطاعات العسكرية والبلاط الملكي للويس السادس عشر. والنازية الألمانية، وكذلك بقية الأحزاب الشمولية المتطرفة حتى في الولايات المتحدة، شهدت ازدهارها الأعظم في سنوات الكساد الكبير (١٩٢٩ ـ ١٩٣٢)، حين ارتفعت البطالة في ألمانيا من مليونين إلى ستة ملايين خلال سنوات ثلاث فقط. وانتفاضة الخبز في القاهرة عام ١٩٧٧، كانت نتيجة مباشرة لرفع الدعم عن الخبز وارتفاع أسعاره. فالإنسان: «غالباً ما يتجه نحو الفعل المباشر نتيجة الظروف الاقتصادية المباشرة أكثر منه نتيجة الدعوات الايديولوجية للعدالة الاجتماعية. ولكن ما أن يقوم بالاحتجاج على نقص الغذاء والبطالة أو الأسعار المرتفعة، فإنه يصبح أكثر عرضة للتأثر بالايديولوجية والتنظيم الثوريين» (غرين، ١٥٦).

والعنف ليس قاصراً على حركات التمرد والعصيان المسلحة، بل ان الأعنف في كل مجال هو الدولة ذاتها، إذا ما سخرت أدواتها لممارسة العنف. ولكن الفرق هو أن عنف الدولة عنف شرعي، أي أن المواطن يرى حق الدولة في استخدامه، على عكس مصادر العنف الأخرى. ولكن أن تملك الدولة «الحق» في استخدام العنف، لا يعني لأن المسألة مطلقة أو مفتوحة الأطراف. فالدولة تستخدم العنف، أو يفترض أن تستخدم العنف، لضبط المجتمع وتنظيمه، ولكن عندما يتجاوز هذا العنف درجة معينة، تختلف حسب الظروف والأحوال، يصبح عنفاً غير شرعي، وتتساوى الدولة في ذلك مع بقية مصادر العنف الأخرى، ويصبح المنافس الأقوى في ممارسة العنف، هو المالك للشرعية السياسية في النهاية. وفي ذات الوقت، عندما يقل عنف الدولة عن درجة معينة، تعتمد أيضاً على الظروف والأحوال، فإن الدولة تفقد شرعيتها بنفس القدر السابق، إذ تبدو والحالة هذه وكأنها غير قادرة ولا مؤهلة لضبط المجتمع وتنظيمه. هذه الدرجة التي تحدد المقدار المناسب من عنف الدولة، يجب أن تؤخذ في الحسبان دائماً عند متخذ القرار السياسي، من حيث محاولة تحديدها بأكبر قدر من الدقة، ووفق تغير الظروف والأحوال، لأن ذات شرعية الدولة تعتمد في النهاية على مثل هذا التحديد: فالعنف الناقص مثله مثل العنف الزائد، كلاهما يؤديان، ضمن عوامل أخرى، إلى الاضطراب وعدم الاستقرار.

وتمزق النخبة السياسية راجع في كثير من جذوره إلى المعجلات الأخرى لعدم الاستقرار ومرتبط بها: فكلما كانت تلك المعجلات أكثر حدة، كان التمزق والصراع أشد، والعكس صحيح إلى حد كبير. وفي هذا المجال، يحلل جرين فيقول: «أن تمزق النخب نفسه ذو علاقة وطيدة مع الهزيمة العسكرية والأزمة الاقتصادية، وحتى لجوء النخبة إلى مستويات أعلى من العنف الحكومي قادر على أن يهدد تماسكها. فمهما كانت الصعوبات الآنية، فإن الزمر داخل النخبة تميل إلى أن لا تتفق حول كيفية حلها، كما أن الشخصيات المتصارعة من الممكن أن تستغل فرصة لازمة لتحقيق مطالبها بمراكز أعلى في الحكومة. إن تمزق النخب الناتج هذا ما هو، بشكل خاص، إلا إشارة واضحة لتدهور كفاءة الحكومة ومن المرجح أن يُقلل من شرعية النظام عند المواطنين» (ص١٦١).

بإيجاز العبارة، فإن تمزق النخبة الحاكمة، أو الصراع بين أجنحتها المختلفة صراعاً شعاره «إما أنا أو أنت»، هو مؤشر على عدم كفاءة النظام الحاكم، وبالتالي قدرة النخبة الحاكمة، على الاستيعاب المشترك للقضايا الطارئة من ناحية، ومن ثم تآكل شرعية الدولة وبداية النهاية لمثل هذا النظام من ناحية أخرى، بالإضافة إلى كونه سبباً من أسباب ارتفاع درجة حدة المعجلات الأخرى، التي تزيد من حدة التمزق ذاته، وذلك في حركة لولبية متصاعدة لا تتوقف إلا بانهيار النظام ذاته في النهاية، أو بتحول جذري في ذات النظام يبدو معه وكأنه لم يعد ذات النظام. فالتمزق والصراع بين الأجنحة المتناحرة في النخبة الحاكمة الروسية مثلاً، كان هو المسؤول الأول عن الاضطرابات المتكررة التي عانت منها الدولة الروسية، ومن بعدها الدولة السوفيتية، وفي أميركا اللاتينية ومعظم الأنظمة السياسية في بلاد العرب، وخاصة الانقلابي منها.

ولكن كيف يكون الإصلاح السياسي وغيره من معجلات عدم الاستقرار، مع أنه هو المطلوب والمرفوع شعاراً من قبل فئات مختلفة، بعضها معارض، والبعض الآخر يود الإصلاح من داخلا السلطة ؟ الجواب بكل بساطة هو أن التوقيت هو المهم هنا وليس مجرد العملية. فإصلاحات غورباتشوف ساعدت في النهاية على سقوط الاتحاد السوفيتي، ليس لأن الإصلاح في ذاته سيئ، بقدر ما أن الأوان كان قد فات لتجديد دماء النظام. فلو أن الاتحاد السوفيتي واصل إصلاحات خروتشوف في الخمسينيات، لربما ما كانت تلك النهاية التراجيدية للاتحاد السوفيتي. ولكن غورباتشوف كان يلعب في الوقت بدل الضائع إن صح التعبير، وهنا يكمن الخلل. وقبل ذلك كانت محاولات القيصر نيقولا الثاني في إصلاح النظام القيصري خلال فترة الحرب العالمية الأولى، ولكن ذلك لم يجد فتيلاً، إذا كان الأوان قد فات. لو أن القيصر واصل إصلاحاته التي استهلها في أعقاب الهزيمة الروسية في الحرب الروسية اليابانية وثورة ١٩٠٥، لربما ما كانت القيصرية ذاتها لتنهار، في مجتمع متدين كان يرى القيصر ظلاً لله على أرضه، ولما كانت الحال قد أوصلت إلى ثورتي فبراير وأكتوبر عام ١٩١٧، فبمثل ما أن على الدولة أن تحدد بدقة تلك النقطة التي تحدد مقدار العنف الواجب ممارسته، أو عدم ممارسته، فعليها أن تحدد بدقة أيضاً النقطة التي عندها يتوجب الإصلاح، وإلا فإنه لن يكون مجدياً بعد ذلك. أما المحاكاة، فتعني بكل بساطة «عولمة» الحدث، إن صح التعبير. فحركة ثورية معينة في بلد ما، قد تؤدي إلى سلسلة من الأحداث المتشابهة في بلاد أخرى، وأبرز مثل لذلك الثورة الفرنسية والروسية والصينية وأثرها في حركات مشابهة في أماكن أخرى. بل أن الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، أدت إلى نشوء حركات وتيارات من الإسلام السياسي التي كانت تسعى لمحاكاتها في ما قامت به في إيران.

الخلاصة: للتاريخ قوانين، وللسلوك البشري نواميس، وللكيانات سنن قد لا تكون بمثل دقة وصرامة قوانين ونواميس وسنن الطبيعة، ولكنها موجودة. وقد لا يستطيع الإنسان تغيير مصائر معينة، ولكنه يحاول من خلال المعرفة أولاً..وفي المحاولة يكمن معنى كل الوجود.